هوامش

لا تقتصر أهمية ثاني أكبر مدن أوكرانيا، خاركيف، على احتضانها منشآت صناعية كبيرة، إذ اعتبرت أول عاصمة لجمهورية أوكرانيا الاشتراكية السوفييتية بين عامي 1919 و1934

تاريخ صناعي عريق لمدينة خاركيف (آر تور فيدال/ Getty)

مدينة خاركيف

أول عاصمة لأوكرانيا السوفييتية وقلعة صناعتها

موسكو ـ **رامي القليوبي**

رغم إعلان البرلمان الأوكراني (الرادا) كييف عاصمة لجمهورية أوكرانيا الشعبية في نهاية عام 1917، تعمد البلاشفة نقل العاصمة الأوكرانية من كييف إلى خاركيف عام 1919، بعد تغيير اسم البلاد كذلك إلى جمهورية أوكرانيا الاشتراكية السوفييتية، التي باتت من أوائل الدول المؤسسة للاتحاد السوفييتي. يعتبر الإعلامي الأوكراني فيتالي بورتنيكوف أنّ البلاشفة اختاروا خاركيف عاصمة لأوكرانيا في ذلك الوقت لدوافع أمنية استندت إلى إمكان الدفاع عنها باعتبار أنّ موقعها قريب من الحدود الروسية. ويقول لـ«العربي الجديد»: «كانت كييف عاصمة لجمهورية أوكرانيا الشعبية، لكنّ الأقلية البلشفية انتقلت إلى خاركيف، ونصّبت نفسها حكومة شرعية مع اعتماد تسمية الدولة بجمهورية أوكرانيا الاشتراكية السوفييتية. وبعدما تأكدت من زوال الخطر اتخذت هذه الأقلية كييف مجدداً عاصمة عام 1934».

قلعة الصناعة السوفييتية

في بداية الحقبة السوفييتية، لم تتحوّل خاركيف البروليتارية إلى مركز السلطة في أوكرانيا فحسب، إنما أيضاً إلى قلعة صناعية للاتحاد السوفييتي بأسره إثر احتضانها العديد من المصانع الكبرى. ويلفت الخبير الاقتصادي الروسي، ليونيد خازانوف، في حديثه لـ«العربي الجديد» إلى أن خاركيف كانت تحتضن في الحقبة السوفييتية مجموعة من المصانع الكبرى التي وفرت معدات للقطاعات العسكرية ومنشآت الطاقة النووية، وانتجت ماكينات وأجهزة كهربائية. واهتم أحد هذه المصانع بإنتاج مركبات نقل ودبابات لتلبية احتياجات الجيش السوفييتي، وبينها دبابات من طراز تي 34 التي لعبت دوراً مهماً في الانتصار على ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية». يضيف: «من بين المنشآت الصناعية الشهيرة في خاركيف خلال الحقبة السوفييتية أيضاً، مصنع إلكتروتياجماش لصنع غسالات من ماركة خاركوفتشانكا وعصارات من ماركة روسينكا التي كانت تباع في أنحاء البلاد. أما مصنع خاركيف للتوربينات (توربو آتوم حالياً) فعرف بإنتاج توربينات بخارية للمحطات النووية».

وحول أوضاع مصانع خاركيف بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، يتابع: «شهدت هذه الفترة انهياراً لصناعات خاركيف في ظل إفلاس بعض المنشآت مثل المنجل والمطرقة وبورشين للمحركات، وتدهور أداء أخرى مثل مصنع خاركيف لماكينات النقل. في المقابل، حافظ تورب آتوم على موقعه جزئياً بفضل عقود تصدير إلى الخارج عوضت تراجع الطلب على توربيناته في أوكرانيا ذاتها. وهكذا، تدهورت أوضاع خاركيف كمدينة صناعية كبرى في شكل سريع، بدليل بطء وتيرة الإعمار السكني مقارنة بالحقبة السوفييتية».

باختصار

اشتهرت خاركيف خلال الحقبة السوفييتية باحتضان مصانع كبيرة وفرت منتجات للقطاعات العسكرية ومنشآت الطاقة النووية

■■■

بعد الحقبة السوفييتية بدأت أوضاع خاركيف كمدينة صناعية كبيرة تتدهور بدليل بطء وتيرة الإعمار السكني فيها

■■■

قصفت القوات الروسية خلال غزوها الأخير لأوكرانيا خاركيف براً وجواً من دون أن تنجح في السيطرة عليها

«هكذا يجب أن تستقبل الرئيس»

يبلغ عدد سكان خاركيف 1,45 مليون غالبيتهم من الناطقين بالروسية، وتزيد مساحتها عن 300 كيلومتر مربع، وهي واحدة من المدن الأوكرانية الثلاث التي يوجد فيها مترو للأنفاق إلى جانب كييف ودنيبر. في حلقات المسلسل السياسي الساخر «خادم الشعب» من بطولة الممثل الكوميدي السابق الرئيس الأوكراني الحالي فولوديمير زيلينسكي، ينتخب مدرس تاريخ متواضع يعرف ببساطته ويدعى فاسيلي هولوبوروكو رئيساً لأوكرانيا، وينفذ جولة تشمل مدناً أوكرانية بينها خاركيف، إذ يستقبله محافظها الفاسد والمتواطئ مع أحد كبار الأوليغارشيين (رجال الأعمال في الجمهوريات السوفييتية السابقة الذين كسبوا ثروات بسرعة خلال عصر الخصخصة) في البلاد، ويحاول أن يظهر أمامه كأنه متواضع أيضاً. وحين يصل محافظ خاركيف الذي يحمل اسم تاراس أندرييفيتش في المسلسل، إلى محطة القطار على متن موكب من السيارات الفاخرة يخلع ساعته الذهبية ويستبدلها بأخرى رخيصة قبل أن يستقبل الرئيس، ثم يُفاجأ بأن موظفي ديوانه أعدوا استقبالاً مهيباً للرئيس في أول زيارة له إلى المدينة، ما يصيبه بذعر وخوف من ردة فعل الرئيس المعروف بشخصيته المتواضعة، ومن احتمال تداول الموقف في وسائل الإعلام. ويقرر أندرييفيتش حينها استبدال سيارات الموكب الفاخر بأخرى متهالكة سوفييتية الصنع لتنظيم تنقلات الرئيس في المدينة، ويتحدث إليه باللغة الأوكرانية التي يندر استخدامها في المسلسل الذي يعتمد على اللغة الروسية: «البلاد كلها تتطور، لماذا؟ لأنه وصل إلى الرئاسة شخص أمين وذكي وطيب مثلكم». ثم تقاطع رنة هاتف الرئيس حديثه مع المحافظ، فيرد هولوبوروكو على اتصال رئيس الوزراء السابق والمتعاون معه، يوري تشويكو، الذي يطالبه بالظهور أمام المحافظ كشخصية حازمة وعنيفة، ومخاطبته بعبارات مثل «اخرس» و«هل نسيت بمن تتصل؟» و«لا أحتاج إلى مبرراتك» و«لديك عشر ثوان حتى تعطيني الإجابة المطلوبة» فتظهر علامات الرعب على وجه المحافظ.

في سطور

بدأ الفلاحون الأوكرانيون والقوزاق الذين أسسوا خاركيف، باستيطان الأراضي غير المأهولة في القرن السابع عشر، بعدما هربوا من نير اللوردات البولنديين في غرب أوكرانيا وترانسنيستريا. ومنذ بداية القرن التاسع عشر، تطورت خاركيف كمركز صناعي مهم، وتحوّلت في النصف الثاني من القرن ذاته إلى أحد أكبر المراكز الاقتصادية في الإمبراطورية الروسية ثم الاتحاد السوفييتي بعد تأسيسه.

ومع إطلاق العملية العسكرية التي تقودها روسيا في أوكرانيا في 24 فبراير/ شباط الماضي، شنت القوات الروسية هجمات صاروخية وباستخدام سلاح الجوي على خاركيف من دون أن تنجح في السيطرة على المدينة، فانسحبت من العديد من البلدات المحيطة بها، وركزت عملياتها على مقاطعتي دونيتسك ولوغانسك اللتين اعترفت سابقاً من جانب واحد باستقلالهما عن أوكرانيا.

واحتضنت خاركيف 60 معهداً للبحوث العلمية ونحو 30 جامعة و8 متاحف و7 مسارح، وعرفت بأسواقها أيضاً التي تجاوز عددها 20، وأشهرها سوق باراباشوفو ثاني أكبر سوق في أوكرانيا بعد «الكيلومتر السابع» في مدينة أوديسا، وأحد الأكبر أيضاً في أوروبا. وقد تعرض لتدمير كبير خلال الغزو الروسي الأخير.

وأخيراً

الافتراض والزمن الثابت

رشا عمران

هل كان مارك زوكربيرغ وزميله إدوارد سافيرين يتوقعان أن يتحوّل الموقع البسيط الذي أنشأه لطلاب جامعة هارفارد إلى أكبر وأوسع وأشهر منصّة إلكترونية عابرة للقارّات يتم تحديث آلياتها بشكل شبه يومي، ويضاف إليها كل ما ينتجه الخيال البشري في عالم الافتراض، وتأخذ شكل الحياة البديلة للبشر الذين يقضون أوقاتا طويلة خلف الشاشة للتواصل والاجتماعات والتسوّق وزيارة المتاحف والمعابد والآثار والقراءة والتعلم والمشاركة في الورش التدريبية، وكل ما نفعله في حياتنا حاليا عبر وسائل التواصل، بعدما أصبحت حياتنا الاجتماعية الواقعية مرتبطةً، الى حد بعيد، بعالم الافتراض، وأصبح تواصلنا الجسدي مع الآخرين شبه محدود، ما زاد في عدد حالات الاكتئاب في العالم وفي عدد المنتحرين، (الأسباب مختلفة ومتعدّدة طبعا)، لكن للعزلة والإحساس بالوحدة دورا رئيسا فيها.

هل كان لمنصة فيسبوك وما يرتبط بها من مواقع تواصل أخرى أن تبقى محصورة بالتواصل الاجتماعي، كما أريد لها حين أطلقت، في ظل الأحداث العاصفة التي اجتاحت العالم منذ بداية نهاية عشريته الأولى: الربيع العربي والحروب التي تلته والتغيرات الكبرى التي حصلت للشعوب التي تبنّت فكرته وحلم الخلاص، اللجوء وما نتج عنه من متغيرات في المجتمعات المستضيفة، التحالفات الدولية السياسية والاقتصادية والعسكرية، الانقسامات المهولة بين اليمين واليسار وصعود المد الديني الراديكالي في العالم العربي وفي العالم الغربي، كوفيد 19 والأثر المهول الذي تركه على سيرورة حياة البشرية والأزمة الاقتصادية الكبرى التي خلفها وجوده، الحرب التي شنها الرئيس الروسي بوتين على أوكرانيا، وموجة اللجوء الجديدة، والأزمة الاقتصادية الجديدة التي أدت إلى تضخم اقتصادي يعاني حاليا العالم كله من آثاره الكارثية ويتحدث خبراء الاقتصاد عن أزماتٍ أشدّ وطأة قادمة في الاقتصاد العالمي، ما يعني المزيد من التوترات السياسية والاجتماعية في المجتمعات التي شهدت موجات لجوءٍ كثيفة خلال العقد الماضي وبداية الحالي، ما يعني أيضا ازدياد عدد الفقراء والعاطلين من العمل، ما ينذر بمستقبل كارثي لا يترك أي بادرة للتفاؤل لدى شعب أو مجتمع. وسط هذه الكوارث والنكبات والهزائم الشخصية والعامة، ووسط ما يخلفه ذلك كله من عزلة نفسية ومادية وخوف وهواجس وإحساس بفجوة نفسية كبرى تجاه كل المسلمات والبديهيات، سوف تكون منصة فيسبوك المتاحة بشكل شبه مجاني لجميع البشر البديل الوحيد عن توقعاتٍ كثيرة حملتها البشرية بخصوص المستقبل، وسقطت كلها مع سقوط أحلام التغيير والتعويل على صوابية سياسية دولية اتضح أنها افتراضية هي الأخرى، مثلها مثل قيم كثيرة كشفت أحداث العقد الماضي أنها مجرّد شعارات فارغة، كالحرية والعدالة والحقوق.

يمكن القول إنه بسبب فشلنا وعجزنا عن فهم (واستيعاب) ما حدث لنا وما استجد على حياتنا (ولا سيما نحن العرب ومن لفّ لفيفنا) وجدنا في وسائل التواصل، ولا سيما «فيسبوك» ما يعوّض عن الفراغ المهول الذي خلفته خسارتنا الكبيرة، تحوّل عالم الافتراض إلى وطن ومجتمع بديل، نحمله كل ما نحمل في دواخلنا: أحزاننا ومخاوفنا وغضبنا وأحفادنا وخلافاتنا وتشتتنا ورغباتنا، نسجّل على فضائه ما اعتدنا تسجيله في دفاتر يومياتنا الخاصة والسرّية. نتجمّع فيه أيضا مسيّرين بغريزة قطيعةٍ تستغني عن استخدام العقل والتفكير، نختلق حكاياتٍ عن أحد ما، ونلفق له التهم ونشتمه ونهدّد بقتله ونعدمه معنويا. وقد يتطوّع أحدنا نتيجة التحريض لتحويل الافتراض إلى واقع، ويعدمه فعلا. نحكي بصراحة عن خططنا ونيتنا لفعل شيءٍ ما، قد يكون هذا الفعل ارتكاب جريمة أو فعل شائن. نفعل كل شيء في هذا الفضاء الغريب، وكأننا عبره ننتقم من الحياة وما فعلته بنا، متحصّنين بأن لا أحد يرى وجوهنا لحظة ارتكاب فعل الفضح أو البوح أو التلفيق أو التزوير أو التحريض أو الترهيب أو التهديد، كما لو كنّا أشباحا أو لامرئيين، ما يجعلنا نعتقد أننا سننجو من المحاسبة والعقاب، إذ من سيحاسب كائنا افتراضيا لا ملامح له، يكتب عن نفسه معلوماتٍ مزيفة بالكامل، ولا تمت للواقع بأي صلة؟

والحال أن عالم الافتراض، بمنصّاته كلها، يشبهنا، بل هو نحن حاليا، بكل البؤس الذي يغلّف حياتنا ويجعلنا كائناتٍ لا تتسع روحها، لا للاختلاف ولا للتسامح، هو صورة عما نعانيه وصورة عما نفكر به وصورة عن أوهامنا عن الماضي والحاضر والمستقبل، هو الزمن الثابت في مواجهة الوقت الذي يجري ويجرفنا معه، من دون أن نفكّر بخطورة ما نتركه في ثبات الزمن.

> عالم الافتراض صورة عما نعانيه وصورة عما نفكر به وصورة عن أوهامنا عن الماضي والحاضر والمستقبل

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**